

البينية الثقافية وسياسات الهوية في المناخ ما بعد الكولونيالي قراءة
في رواية "تحت سماء كوبنهاغن" لحوراء النداوي

Interculturalism and identity politics in the post-colonial context

*A reading in The novel of Under the Copenhagen sky by Hawra Al
Nidawi*

فتيحة أمغار*

د. بلخير دوالي*

تاريخ النشر: 2021/09/15	تاريخ القبول: 2021/05/20	تاريخ الإرسال: 2021/01/18
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

تستعرض هذه الدراسة واقع الذوات المهمشة في الفضاءات البينية من منظور الدراسات ما بعد الكولونيالية بوصفها حقلا معرفيا يعنى بالحالات الشعورية والثقافية لهذه الذوات مقابل الآخر المتمركز، وهي الدراسة التي وجدت في رواية "تحت سماء كوبنهاغن" لحوراء النداوي أنموذجا سرديا يعبر عن هذه القضية الثقافية وتداعياتها الحضارية على الذات المغتربة، ذلك أن الرواية تطرح طبيعة الواقع الثقافي البيني والتحديات التي تواجهها الذوات المهمشة في المجتمع الغربي المضيف بمضامينه الثقافية المغايرة وممارساته الاقصائية، وهو ما عزز الفجوة الحضارية في وعي هذه الذوات وأعاق تواصلها الثقافي مع الآخر، فجعلها تسعى لخلق عالم بيئي خاص بها لتتعايش حضاريا مع واقعها الثقافي الجديد.

المؤلف المرسل: فتيحة أمغار amghar.fatiha@univ-medea.dz

*جامعة يحي فارس المدية/الجزائر، مخبر الدراسات الأدبية والنقدية، كلية الآداب

واللغات جامعة لونيبي علي البلدية 02 amghar.fatiha@univ-medea.dz

*جامعة يحي فارس المدية/الجزائر douali.belkheir@univ-medea.dz

الكلمات المفتاحية: البينية الثقافية، سياسات الهوية، مابعد الكولونيالية، الذات المغتربة، تحت سماء كوبنهاغن.

Abstract:

This study reviews the reality of marginalized self in the liminal spaces from the perspective of post-colonial studies as a field of knowledge concerned with the emotional and cultural states of these self vis-à-vis the Other. It is the study that found in the novel "Under the Copenhagen Sky" by Hawra al-Nadawi as a narrative model expressing this cultural issue. And its civilizational repercussions on the expatriate self, this novel presents the nature of the intercultural reality and the challenges faced by marginalized self in the host Western society with its different cultural contents and exclusionary practices, which reinforced the civilizational gap in the consciousness of these selves and impeded their cultural communication with the other, and made them seek to create their own inter-world Makes it coexist culturally with its new cultural reality.

Key words: the Interculturalism, Identity politics, the post-colonial, Expatriate Self , Under the Copenhagen Sky.

*** **

مقدمة:

تتوافق الدراسات مابعد الكولونيالية في سياقها المعرفي مع المعطيات الفكرية لمرحلة مابعد الحداثة المستندة إلى فلسفة إعادة النظر في الكثير من المسلمات والمقولات الفكرية للمركزية الغربية وتعرية خطاباتها الثقافية، "فالخطاب مابعد الكولونيالي هو شكل من أشكال مابعد الحداثة، ذلك أن اهتمامه منصب على إعادة التفكير بجيولوجيا الحداثة"¹، وذلك من خلال السعي الحثيث لإنتاج خطابات ثقافية وأدبية مضادة من شأنها إعادة قراءة التاريخ من منظور وعي الذوات المهمشة، ومن ثم فهمتها هي الكشف عن الايديولوجيات الامبريالية التي سوقتها الذات الغربية في العالم عبر أشكالها الثقافية المختلفة .

في ظل هذه الرؤية التفكيكية اتخذ السرد الروائي منعطفا جديدا يهدف إلى إعادة تمثيل الذات بعيدا عن الصورة النمطية التي رسمها الآخر المتمركز على ذاته في مشروعه الامبريالي، "وهذا ما تؤكدته إستراتيجية السرد في الرواية عبر العالم: في الرواية

الكولونيالية ومابعد الكولونيالية، و"آداب العالم الثالث"، وكتابات "الأصلائي" في الدول التي تعرضت شعوبها الأصلية للمحو (أستراليا، أمريكا..)، وكتابات المنفى والمهجر والشتات، والكتابة النسوية، ورواية التابع، حيث يوظف السرد كاستراتيجية مضادة لمواجهة عمليات الإسكات التي تفرض على الهامش².

فنتيجة للراهن السياسي والثقافي بزغت إشكالات عويصة تعلق بقضايا الهوية والذات وعلاقتها بالآخر في بعدها الثقافي، وهو الأمر الذي جعل السرد يتخذ كشكل من أشكال المقاومة والتمثيل الثقافي، لاسيما في ظل تنامي هجرة دول العالم الثالث هروبا من واقعها المرير إلى يوتوبيا (Utopia) أوروبا حيث تتقابل الثقافات المختلفة وتتعدد المرجعيات الثقافية للطرفين استجابة للحظة التاريخية الراهنة، فقد أصبح "موقع الثقافة اليوم لا يقع في لباب نقي من التراث، بل على حواف التماس بين الحضارات حيث تنطلق "بينية" و"هجنة" و"هويات" جديدة"³ ينتج عنها ذلك الاختلاط العنصري والتعدد الثقافي الذي يجعل للذوات المهمشة تعيش البينية الثقافية في المجتمعات الغربية الراضة لها والتي خلقت القطيعة الحضارية معها، تلك القطيعة التي جعلت هذه الأقليات تعيش مخاض الموت وهي تبحث عن هويتها وكيونتها في الفضاءات الثقافية البينية الجديدة، فكيف تعايشت الذات المغتربة مع البينية الثقافية في رواية "تحت سماء كوبنهاغن"؟ و إلى أي مدى عكست لنا الكاتبة العراقية حوراء الندوي واقع الذات المهمشة في المناخ مابعد الكولونيالي وهويتها المختلفة من خلال سردها الروائي؟

1. حوراء الندوي وجغرافية الارتحال :

ولدت الروائية العراقية حوراء الندوي سنة 1984 في بغداد العراق وبحكم الظروف السياسية والاجتماعية الصعبة التي واجهها والدها قرر الهجرة مع أفراد أسرته إلى الدنمارك سنة 1991 حيث استقر بهم المقام هناك، فترعرعت "الندوي" في العاصمة الدنماركية "كوبنهاغن" وتلقت تعليم اللغة العربية في المنزل بمساعدة والديها، وأخيرا انتقلت إلى لندن مع أسرته لتستقر هناك إلى يومنا هذا.

إن جغرافية الارتحال التي عاشتها الروائية "حوراء الندوي" ساعدتها على نقل تجربة المهاجرين الثقافية من عمق واقعهم الجديد، خصوصا وأن المرأة الكاتبة قد اتخذت في خضم الدراسات ما بعد الكولونيالية مسارا روائيا تحديثيا ينم عن تجاوزها لثبوتية

الطرح في مسارها الإبداعي، ونمطيته التي تعلقَت أساساً بكيانها الخاص ومشاكلها الأنثوية لتخلق بذلك عوالم كتابية جديدة واعية استجابة للسياق الثقافي والفكري الذي أفرزته التطورات الحضارية والفكرية الحاصلة في العالم، من خلال إنتاج نصوص إبداعية جديدة مستوعبة للقضايا الثقافية المعاصرة كالهوية، العنصرية، التهميش، الاختلاف الثقافي وطبيعة اللقاء مع الآخر في مجتمعاته الغربية... الخ، سعياً منها لإثراء الممارسة الإبداعية النسوية وصياغة رؤية نسوية واعية ومعقدة للعالم وقضاياها الثقافية، إذ نجدها بالأساس تطرح العلاقة بين الذات العربية المهاجرة والآخر بتجاوزاتها وتنافرها "مما نوع وعدد صور العلاقات المنعكسة في الأثر الإبداعي، فبدت في بعض الأحيان في صورة الصراع مع الغرب وأحياناً أخرى في صورة اللقاء الحضاري المؤطر بعلاقات المثاقفة في صورتها الكولونيالية، حيث يسير المغلوب في أثر غالبه محاولاً تمثل حضارته وتقديمه"⁴.

لأسيما مع تنامي ظاهرة الهجرة وانعكاساتها على الذوات المهمشة التي تواجه معضلات وجودية وعرقية وإثنية ودينية... الخ في المجتمعات الغربية "حيث تلتقي الثقافات المختلفة، وتتصادم مع بعضها بعضاً، غالباً في علاقات شديدة الاختلاف من السيطرة والخضوع"⁵ أمام النظرة الغربية العدائية الامبريالية التي تدعي النقاء العرقي والتفوق الثقافي.

وهنا تبرز على نحو متزايد أفكار الناقد الهندي هومي بابا Homi Bhabah التي جاءت في كتابه "موقع الثقافة" والتي تدعو إلى تعرية التحيزات الغربية وتفكيكها المتعالي الذي منع الذوات المهمشة من العيش بشكل سليم في هذه المجتمعات، الأمر الذي وجد صداه الثقافي في الفكر ما بعد الكولونيالي والدعوة الصريحة لتقويض الامبراطورية الميتروبوليتانية Métropolitaine ونظرتها المتطرفة للذوات المهمشة، بالإضافة إلى تصوير أوضاع المهاجرين في المجتمعات الغربية الراضية لهم والرهانات التي تواجه هويتهم الأصلية في هذه المجتمعات، "فإن تقرأ لهومي بابا يعني أن تعيش تلك اللحظات من الغربة المقلقة، على الحدود ما بين الثقافات والأمم والهويات والعوالم؛ في الممر الفاصل الواصل؛ على الجسر؛ في منطقة الهجنة، والتجاذب، والانشطار"⁶ وهذا يعني أن السياقات الجديدة التي فرضتها عليهم الغربة بحيثياتها النفسية والحضارية المتداخلة جعلتهم يعيشون حالة من القلق والانشطار بين ثقافتهم الأصلية وبين ثقافة

المجتمعات الجديدة، وحالة التمزق التي طبعت واقعهم هناك إزاء سياسة التهميش والاقصاء الممارسة ضدهم، ما يؤكد أن العلاقة بين الذوات المغتربة المهمشة والواقع الغربي الجديد معقدة في بعدها الثقافي.

وهو السبب الذي جعل هومي بابا Homi Bhabah يدعو من خلال أفكاره لانفتاح الهويات الصلبة وتلاحمها، وتكريس مشروعية الاختلاف والتعددية وكذا البحث عن سبل المفاوضة لأجل الاندماج والتعايش في الواقع البيني الجديد، وفي السياق ذاته طالب بنبذ خطاب العنف والكرهية الذي تروج له المجتمعات الغربية وتمارسه بشكل عدائي مع المهاجرين، من خلال تقويض الصورة النمطية الاختزالية التي رسمها الغرب عن الشرق في أذهانهم، إيماناً منهم بمركزية ثقافتهم وتفوقها على غيرها، وهو ما يناقض فكرة تداخل الثقافات التي يكشف عنها التطور الكورونولوجي Chronologie للثقافات الانسانية المتداخلة بحيث "لا تنبع عدم قابلية الثقافة للترجمة عند بابا من فرادة كل ثقافة، وخصوصيتها واختلافها عن الثقافات الأخرى، بل من كونها مختلطة على الدوام مع الثقافات الأخرى، ولا تني تفيض على الحدود المصطنعة التي تقيمها الأمم لاحتوائها"⁷. فالثقافات الإنسانية توظفها منظومة ثقافية ديناميكية لا تستقر على وضع، تؤكد استفادتها من انجازات حضارية دخيلة عليها والثقافة الغربية هي جزء من هذه الثقافات المتلاقحة.

تكشف الكاتبة العراقية "حوراء النداوي" التي عاشت في المهجر طبيعة الارتحال الجغرافي والبينية الثقافية التي تعيشها الأقليات المهاجرة وتداعياتها على هويتها ووعيمها الثقافي، بحثاً عن ميكانيزمات التعايش في الفضاءات البينية من منظور إبداعي نسوي، ومما لاشك فيه أن المهاجر عندما يكتب عن الاغتراب ومشاكله ينطلق من عمق تجربته الشخصية وصدق مشاعره، وهذا ما سنثبته من خلال تحليلنا لرواية "تحت سماء كوبنهاغن" التي عالجت واقع المهاجرين العرب ومشاكلهم الثقافية والاجتماعية والحضارية، وكذا الوقوف عند الوعي بسياسات الهوية في الفضاءات البينية وفق الوعي ما بعد الكولونيالي الجديد.

2. العنوان واستراتيجية التوضع الثقافي:

يشير مفهوم التموضع الثقافي إلى "تموضع الذات ضمن خطاب ثقافي معين"⁸ وباعتبار الرواية خطاباً ثقافياً يتم من خلاله تحديد موقع الذات في الوعي الثقافي، سيما وأن الآخر جعل الذات المغتربة تبحث عن ميكانيزمات تتأقلم من خلالها مع وضعها الجديد إزاء استراتيجياته المهيمنة ونظرتها الثقافية الاستعلائية، بحيث تشتغل رواية "تحت سماء كوبنهاغن" للكاتبة العراقية "حوراء النداوي" على موقعة الذات المغتربة في مواجهة الآخر من خلال عرضها للمضمّر الأيديولوجي الذي يكشف عن مكانتها في وعيه الثقافي، ويظهر ذلك بداية من العنوان الروائي، إذ يكشف التأمل التأويلي للعنوان محاولة الكاتبة تحديد التموضع الثقافي في وعي الذات المغتربة التي وقعت ضحية عالمين متناقضين تتجاوزهما خلفيات سياسية وثقافية زادت من حدة التوتر بينهما، وهو ما جعل الذات تعيش اضطراباً ثقافياً عزز الفجوة الحضارية في وعيها الثقافي الجديد.

يلمس متأمل العنوان وفق منظور تأويلي محتمل نزوع الكاتبة لإبراز تحيّزاتها الإيديولوجية وتكريسها لقضية تهيمش الذات المغتربة في مقابل تمركز الآخر الغربي، عندما تعمّدت إبراز الآخر عنوة من خلال دلالة كلمة "كوبنهاغن" التي تجعل أفق توقع القارئ المفترض يرى أن أحداث الرواية وقعت في بيئة مختلفة جغرافياً وثقافياً عن بيئة الأنا المهمشة التي تم فصلها من العنوان لمبررات إيديولوجية وفنية، ذلك أن المحتمل من العنوان يأتي "أنا/هدى تحت سماء كوبنهاغن"، فكلمتا الأنا/كوبنهاغن كلمتان متناقضتان دلالياً، حيث أن الآخر يعني "كل ماهو (غربي) أي ماهو خارج نطاق الذات".⁹ التي تحمل خصوصية جوهريّة تميزها عنه.

تكشف لنا القراءة التأويلية لإيحائية العنوان أن ثمة رغبة نفسية وإيديولوجية تؤكد تكريس التفوق الثقافي الغربي في لاوعي الذات المغتربة وشعورها بالتهيمش والإقصاء في الفضاء البيني كما يسميه "هومي بابا" Homi Bhabah ، والحقيقة التي تكشفها لنا المسارات السردية للرواية أن الذات المغتربة سافرت إلى الآخر بحثاً عن مستقبل مشرق وحياة أفضل من واقعها العربي الذي عاشته، فقد ولدت البطلة "هدى" في الدنمارك من أبوين عربيين هاجرا من العراق إلى الدنمارك "ولدت هنا في كوبنهاغن -الدنمارك-، من أبوين عربيين عراقيين هاجرا من العراق"¹⁰ قسرا إلى الدنمارك بسبب أوضاعهم الاجتماعية والسياسية الصعبة في العراق التي جعلتهم يلجؤون إلى يوتوبيا (Utopia) الآخر

ويغادرون بيئتهم الأصلية، وهكذا فإن اللقاء الحضاري بين الأنا العربية والآخر الغربي قد تحقق من إichائية العنوان الذي جرى فيه تغليب الآخر الغربي مقابل الأنا العربي الممزق ثقافيا الذي تعرض للتهميش في المجتمع المضيف وكأنه غير مرحب به في هذا اللقاء الحضاري، فالكاتبة وفق هذا المنظور التحليلي حملت العنوان الروائي إيديولوجية تبنتها من العتبة النصية الأساس عينت من خلالها تموضع الذات المغتربة المهمشة في مقابل الآخر المتمركز على نفسه.

3. غياب الوطن وقلق الانتماء:

مثلت الكاتبة "حوراء النداوي" صورة العرب المهاجرين الذين أجبرتهم أوضاعهم الصعبة للارتحال والبحث عن الاستقرار في وطن بديل عن موطنهم الأصلي، ولم يتوقف طرحها عند هذا الحد بل حاولت الكاتبة إثارة مجموعة من الاشكالات المتعلقة بالهوية والانتماء التي طالت الذات المغتربة في الفضاءات البينية خاصة المرأة التي شكل لقاءها مع الآخر مفترق طرق شديد الخطورة في عالم تتصارع فيه القيم الثقافية والاجتماعية.

جسدت رواية "تحت سماء كوبنهاغن" داخل متنها الروائي القلق الأنطولوجي الذي يؤرق الذات في لقاءها مع الآخر وهو اللقاء الذي ولد تعارضا شديدا بحكم تأثير النظرة الكولونيالية للآخر التي بقيت متجذرة في وعيه المتروبولي، فبالرغم من انحصار الاستعمار العسكري وتراجعته إلا أن النوستالجية الكولونيالية بقيت راسخة في وعيه وفي معاملاته مع الدوات غير الغربية - وخاصة المهاجرين - لذلك يدعو هومي بابا لضرورة تخلي الغربيين عن فكرهم المتعالي الذي وقف حجر عثرة في وجه تفاعلهم الحضاري مع غيرهم من الأمم والثقافات حيث يقول: "على المتروبول الغربي أن يواجه تاريخه مابعد الكولونيالي، كما يرويه ذلك الدفق من المهاجرين واللاجئين الذين أتوا إليه بعد الحرب، أي بوصفه سردا أصليا أو محليا من داخل هويته القومية"¹¹ ويتعايش مع الوضع الجديد بمنأى عن خلفياته الكولونيالية.

تميل رواية "تحت سماء كوبنهاغن" إلى الكشف عن المأزق الحضاري الذي وقعت فيه الذات المغتربة في فضائها البيئي والصراع النفسي الذي تعانیه جراء شعورها بالضيق والانشطار بين واقعها في المجتمعات الغربية، وبين إحساس غيابها عن وطنها الأصلي الذي جعلها تعيش مفارقة وجودية مؤلمة، فقد تمكنت حوراء النداوي عبر تمثيلها

الروائي من تجسيد حالة الذات المغتربة الباحثة عن انتمائها ووجودها الثقافي، وذلك عندما عبّرت الشخصية الرئيسية "هدى" عن ذلك بشكل صريح "إن انتمائي إليكم لا يعدو الاسم واللقب، أما الشخصية والفكر والثقافة التي أحملها فتعد أشياء ذائبة في أخرى غريبة عنها لتصبني في النهاية شيئا مشوها غير خالص... أنا شخصا لا أعرف السبب خلف كل هذا، هل السبب تربيتي المضطربة، أم شخصيتي المرتبكة أم نشأتي المختلفة لا أدري... وقد يكون سردي لقصتي الآن ماهو إلا طريقة جديدة أبحث فيها عن ذاتي".¹²

يعمق هذا المقطع السردي رحلة البحث عن الذات الضائعة وعن الانتماء وسط البينية الثقافية التي تعيشها "هدى" تحت وطأة الشعور بالاغتراب والبعد عن الوطن، فلا غرابة أن هذا الوضع الاجتماعي والثقافي الجديد ساهم في تفكيك هوية الذات المغتربة وكّرّس شعورها بالاضطراب حيث غدّت تتأرجح بين جدلية الارتداد إلى الذات التي لفظتها مهمشة في أزقة الغربة وبين التماهي في الآخر الذي يعاملها كنكرة في مجتمعه الغربي، وهكذا فإن الشخصية الرئيسية غير مستقرة نفسيا واجتماعيا وسط واقع ثقافي عرقل عليها الاندماج في الوطن البديل الذي رفضها أصلا، "كأنني مكان تلك البقرة، تارة يؤرّجحوني وتارة يطوّحون بي في الهواء وتارة يحلبونني. وهكذا يعلن عني.. هدى محمد عراقية من الدنمارك، أو دنماركية من العراق، لا أعلم الترتيب الصحيح حقا"¹³ فنتيجة لهذه الازدواجية الوجودية تأرجحت شخصية "هدى" بين ذات عربية أصيلة وبين أخرى غريبة ترفضها لاختلافها الثقافي، وهو الاختلاف الذي جعلها تعيش إحساسا جدليا بين هويتها الأصلية وبين الارتقاء في ثقافة الآخر العدائي هروبا من لانتمائها، "لكنني أدري تماما أنني أسكن في هذا البلد المختبئ عن العالم في شمال أوروبا وأنا أيضا أختبئ معه وفيه عن أصولي، حتى بات مجرد إعلان عن منتج منه يسعدني، كأنه إثبات لكيونوتي"¹⁴ ولعلها تؤكد هنا حقيقة هوسها بالانتماء في ظل الواقع البيئي الذي تعيشه في اللحظة الآنية.

4. الاغتراب وتفكك الهوية اللغوية:

حينما نحاول مقارنة أوضاع الذوات المهمشة في المجتمعات الغربية لابلد لنا أن نتطرق إلى خصوصية لغتها في الفضاء الثقافي البيئي الجديد الذي جعل هذه الذوات تزواج بشكل خاص بين اللغة الأم واللغة الثانية التي فرضها السياق الثقافي الجديد، والجدير

بالذكر هنا ذلك التعالق والتداخل القوي الموجود بين اللغة والهوية "فاللغة هي سلطة الثقافة، وركن الهوية الجماعية، ولا أهمية لها بدون مستخدمها، فإذا تراجعت وشابهها الهجين، وكثر الدخيل تزعزعت الذات الثقافية، وضعف الانتماء، وأقبلت شرائح من النخبة على الهجرة إلى لغة أخرى"¹⁵ فكثيرا ما تدخل الذوات المغتربة في متاهات اللغة التي تقف عائقا أمام اندماجها في المجتمع المضيف، ولتحقق التواصل مع الآخر كان لابد لها من أن تتوسل لغته وهكذا فالرهان سيكون أصعب على هويتها، لأنه يخلق مشكلة أشد تعقيدا في العلاقة المزدوجة بين اللغة الأم ولغة المجتمع المضيف.

لا تختلف رواية "تحت سماء كوبنهاغن" عن الروايات التي عكست لنا ظاهرة الاغتراب اللغوي وتداعياته على ثقافة الذات المهمشة ووجودها في الفضاءات البينية بحيث تغدو هذه الازدواجية اللغوية إشكالية عويصة تواجه هوية تلك الذوات وهي تبحث عن ميكانيزمات التعايش في المجتمع الجديد، فقد أحدثت اللغة في هذه الرواية فجوة ثقافية بين الذات والهوية عندما تعترف الشخصية الرئيسية " أن الغلبة كانت للغة الدنماركية، تلك التي أحاطتني بعناية لغوية فائقة وهددتني على وقع مفرداتها التي لم تتخل عني مطلقا، كانت وستظل عوني على تحجر لفظي إذا مانشف تعبيرتي فوق شفتي"¹⁶ ومن هنا تبدو العلاقة بين اللغة الأم والذات المغتربة مضطربة، فقد تبنت هذه الأخيرة اللغة الدنماركية التي عدت بمثابة الملاذ لشتاتها وضياها النفسي والاجتماعي في مجتمع تختلف رموزه اللغوية ونظامه اللغوي عن خصوصيات مجتمعه العربي، من أجل ذلك جعلت لغة الاغتراب البديل للغتها العربية" كانت إطلالة لغتي العربية ضيقة على حياتي.. في صغري كنت ألتقطها استماعا فقط وأرد عليها بالدنماركية، ولا أذكر مرة نهزني فيها أمني لعدم تحدثي بالعربية.. وعلى عكس ذلك كان والداي يبدوان سعيدين بحقيقة كوني أتكلم الدنماركية بطلاقة والعربية بركاكة"¹⁷

فالبينية الثقافية التي تعيشها هذه الذوات جعلتهم يخوضون تحديات ثقافية كثيرة فرضت عليهم الاختيار بين المحافظة على بقائهم الثقافي الأصلي بمضامينه وتجلياته وبين الإذعان للثقافة الجديدة بمقوماتها، غير أن التواطؤ الثقافي الذي قامت به الشخصية الرئيسية مع لغة الاغتراب يثبت حقيقة تبنيها لهذه اللغة واستبدالها مكان لغتها الأم، فمن جهة يعد هذا طريقا من طرق تماهيا في الآخر والتماثل معه بسبب عدم القدرة

على المحافظة على أصلها الثقافي الذي يحفظ هويتها الأصلية، ومن جهة أخرى يعتبر تمزقا وشتاتا ألقى بظلاله على الذات المغتربة في غياب الحدود الثقافية وهو ما نجد ملامحه في منظور الشخصية الرئيسية عندما تشير صراحة إلى ذلك التمزق اللغوي "ثم بدأت اللغة العربية تطاردني، تلاحقني بمفرداتها، ولم أكن أجاهد تعلّمها... ولم أكن أنفر منها. كل ما في الأمر أنها انسابت معي في حياتي وبدأت تتطور شيئا فشيئا كما تتطور أعضاء جسدي فتكبر، وكبرت هي أيضا معي، إلى الدرجة التي تجعلني أفهم محدثي وأفهمه، فإذا ما أردت الاندفاع في مناقشة أو حديث يتطلب مني كلاما مؤثرا، اخترت عن غير قصد الحديث بالدنماركية"¹⁸ نظرا لما فرضته عليها البيئة الثقافية الجديدة من قيود لغوية، فعلى الرغم من وعيها بطبيعة هذا الصراع اللغوي الذي من شأنه أن يكرس الهوة بينها وبين لغتها الأم وعلاقتها بهويتها الأصلية، إلا أنها تتبنى اللغة الدنماركية عنوة لتتكيف مع المجتمع المضيف وطبيعة نظامه اللغوي والثقافي المغاير.

5. الاغتراب ونوستالجيا العودة:

لقد تفاقمت في الآونة الأخيرة ظاهرة الاغتراب والهجرة بوصفها سمة جوهرية اتسمت بها شعوب دول العالم الثالث بشكل خاص، نتيجة الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية... الخ الصعبة التي قادت الذوات المهمشة للانتقال إلى يوتوبيا (Utopia) أوروبا والغرب عموما، لأنهارأت موطنها الأصلي معادلا لداليا للموت والقهر الأنطولوجي ولكبح الحريات، إلا أن الرفض والاستبعاد الممارس ضدهم في المجتمعات الغربية ما بعد الكولونيالية سيخلق الحاجة النوستالجية (NOSTALGIE) * للموطن الأصلي والشعور بالانتماء العاطفي إليه.

وبالانتقال إلى أحداث الرواية ومساراتها السردية وأبعادها الدلالية نجد أن هذا ما جعل والدة "هدى" تقرر أخذها في رحلة مع أختها "نخيل" للتعرف على الشرق وطبيعته المختلفة والخاصة، "رحلتنا إلى دمشق قرررتها أمي لي ولنخيل من أجل الالتقاء بجذورنا. ثرثرت أمي حول أهمية ذلك لأسابيع حتى اختارت في النهاية دمشق لقربها من العراق المحرّم علينا إلى أجل غير مسمى"¹⁹، فكانت هذه الرحلة استرجاعا لذاتها المشتتة في أزقة الاغتراب، الممزقة بين غرب عنصري وشرق مهمل لكيونونتها، تركها تبحث عن هويتها المضطربة وسط أوجاع الغربة وتداعياتها "كانت تلك أول مرة أرى فيها الشرق، فتلقمته

بانهار شعرت منذ البداية أن يوم وصولي إلى دمشق هو يوم فاصل بين حياتين، في الدنمارك وحياتي القصيرة جدا في سوريا.. أذهلني اختلاف كل شيء عما أعده، وأذهلني أنا نفسي اختلفت عني هناك".²⁰

يتضح للقارئ المفترض من هذا المقطع السردى شغف البطلة هدى بالشرق وترحيبها باختلافه عن نظيره الغربي بعيدا عن المطابقة والتماثل، فإن احتكاكها بأصولها عزز ثقتها بنفسها ووعيمها بذاتها التي فقدتها في مجتمع لا يؤمن بالفوارق والتعدد الثقافي والهوياتي، وهذا المشهد ينقل لنا صورة الذات في لقاءها مع أصولها في سياقات مختلفة مكنتها من التعرف على أنماطها الثقافية المختلفة وتحديد ملامح هويتها الممزقة" ثم إن التقائي بجذوري الشرقية لأول مرة جعل ذاكرتي تميز تلك الأيام عن غيرها. لم يكن احساسى احساس سائحة. ولم يكن لدي فضول المشاهدة إذ لم أكن أشعر بغربة"²¹، يصور لنا هذا المقطع السردى الحالة النفسية لشخصية "هدى" وحنينها الجارف وهي تلتقي بجذورها الشرقية لأول مرة بعدما ولدت وعاشت في الغربية، خاصة وأن العالم الغربى تختلف مضامينه الثقافية عن مجتمعها الشرقى وخصوصيته، وهكذا فإن هذا اللقاء الحميمي مع جذورها الشرقية حررها من وطأة الشعور بالغربة والتميش الثقافى.

6. الحجاب وعنصرية الآخر:

تعرض المرأة المسلمة في الدول الغربية للكثير من المضايقات والاضغوطات ومرد ذلك كطقوسها الدينية الممارسة هناك مما يجعلها معرضة لسخرية وعنصرية للآخر، ولعلم موضوع الحجاب بمناواض يعال حساسة التيطرحها الرواية النسوية في ظل الدراسات ما بعد الكولونيالية كونهت تطارد المرأة المسلمة بسياقاتها الثقافية والدينية المختلفة عن مجتمع متحرر ومنفتح لا يؤمن بخصوصيات المجتمعات المسلمة.

خاصة في ظل العولمة المنشودة التي نقلت الإنسان المعاصر إلى عالم ديناميكي متطور يسعى إلى توحيد المعايير الثقافية والاقتصادية والسياسية وغيرها من أجل الوصول إلى تحقيق التفاعل الإنسانى المشترك، الذي يحتم على المجتمعات الخوض فيه وإلا حكمت على نفسها بالفناء والانقراض، لذا وجب على هذه المجتمعات الاذعان لمبادئ العولمة واستراتيجياتها المطبقة والتي تسعى إلى توحيد النموذج الثقافى في عالم انقلبت موازينه، ذلك أن " الصراع في العالم الجديد كما يقول- صامويل هنتنغتون- لن يكون

إيديولوجيا أو اقتصاديا، بل سيكون الانقسام الكبير بين البشر والمصدر الغالب للصراع ثقافيا"²².

ولو تفحصنا نظرة الغرب للحجاب لوجدناها نظرة عدائية مشحونة بمشاعر الكراهية والسخرية المفرطة، وهذه الصورة السلبية جعلت من الغرب يناهض الحجاب بحجة أنه يرمز للإرهاب والرجعية غير مكترث بالحرية الشخصية للشعوب المسلمة وخصوصية الثقافات المغايرة له، خاصة مع أحداث سبتمبر 2001 التي عززت من عداة الآخر للعرب، بحيث انعكست هذه الأحداث على الساحة الروائية وهذا ما تؤكده ماجدة حمود بقولها: "تركت أحداث سبتمبر 2001 بصمتها على الضمير العربي، مما أرق الفكر والإبداع، لذلك من الطبيعي أن يزداد طرح إشكالية الأنا والآخر في الرواية العربية، فقد زاد حرص الذات العربية على تأكيد هويتها، والدفاع عنها في مواجهة تهمة الإرهاب التي ألحقها الآخر الغربي بها"²³، إذ أنها راحت تواجه التحديات الخارجية التي تهدد كياناتها ووجودها، وخاصة في ظل ما يقدمه الآخر من إغراءات بغية استقطاب اهتماماتهم ووعيمهم وبالتالي تخليهم عن هويتهم ودينهم الاسلامي الذي يرمز في نظره إلى الإرهاب والرجعية أو ما يسمى "الإسلام فوبيا"، سعيا إلى نشر ثقافته وتوحيدها بحيث "يهدف إلى إعادة كتابة التاريخ الثقافي الأوروبي بصورة تحقق له "الوحدة والاستمرارية" من جهة، وتجعل منه "التاريخ العام" للفكر الانساني بأجمعه من جهة أخرى"²⁴ من خلال اخضاع الآخر له ومصادرة ثقافته الأصلية وبالتالي تشكيل صورة نمطية بدائية عنه يكرسها استنادا إلى مرجعياته الامبريالية ونزعته الإقصائية الاختزالية.

ومن هذا المنطلق واجهت المرأة المتحجبة الاضطهاد والقمع في المجتمعات الغربية كون الحجاب يؤكد هويتها العربية الاسلامية فهذا التصادم العقائدي بين ثقافتين مختلفتين ضيق الخناق على المرأة المسلمة هناك، ورواية "تحت سماء كوبنهاغن" رصدت من جهتها حال المرأة المسلمة في مجتمع غريب وطبيعة منفتحة معاكسة لطبيعتها الأم مما سبب لها نوعا من الاضطراب في الهوية فحارت بين الاستسلام لمقتضيات هذا المجتمع والتماهي فيه أو ومحاربة عنصره الغاشمة واستحضار خصوصياتها الثقافية والدينية.

فقد عاشت الشخصية الرئيسية "هدى" اضطرابا نفسيا بعدما قررت أمها أن تحجبها كغيرها من البنات العراقيات المتواجדות هناك خاصة بعد احتكاكها بجاراتها

المسلمات والتي طالبتها بوضع الحجاب لابنتها بعدما بلغت السن المناسب له، إلا أن هدى لم تقف موقف الرفض له بل خوفها الأكبر كان من عنصرية الآخر لها: "وأنا لم أكن أريد أن أتجلب، ليس لأنني لا أؤمن بالحجاب، ولا لأن السفور يحلوني. فحتى ذلك الحين كانت مفاهيمي محصورة في نطاق ضيق جدا هو المدرسة حيث سأكون الوحيدة المرتدية للحجاب فيها كلها".²⁵

إن ارتداء الحجاب وفق وعي الشخصية الرئيسية سيحط من قدرها وقيمتها في محيط المدرسة الذي يرى الحجاب معادلا للتخلف والتراجع الحضاري، حيث انعكس سلبا على نفسيتهما، وكوّن نوعا من القلق والتوجس لديها إزاء النظرة الشريرة للآخر، ففي هذا السياق تصور الساردة سلوك الآخر الغربي عندما يراها مرتدية الحجاب "كانوا يديرون أعينهم الملونة في حيرة مفتعلة، متعمدة، كي يبرهنوا على اختلافي، ثم يطرحون أسئلتهم الغريبة علي.. أسئلة تافهة، أكاد أجزم أنهم كانوا يعلمون بإجابتهم، لكنهم يتعمدون ذلك!... من أجل كل هذا كان ارتداء الحجاب بمثابة كارثة بالنسبة إلي.. وأنا بطبيعتي أستسلم للكوارث، فاستسلمت".²⁶

لقد ساهمت رغبة والدمتها في الاندماج مع جماعات مسلمة بعيدا عن المجتمع الغربي العنصري المختلف عنهم ثقافيا واجتماعيا، والبحث عن العزلة حفاظا على الهوية من الذوبان والانصهار مع الآخر في جعل شخصية "هدى" رهينة أحكام تعسفية، ناهيك عن الأذى اللفظي الممارس ضدها في المدرسة "حملت اختلافي فوق رأسي وأثرت أن أبتعد وأنزوي، وعذاب تميزي يمتص من شخصيتي الكثير، وانطوائي يمتص منها الكثير، فضعفت هي الأخرى أكثر وأكثر".²⁷ فقد تفاقم إحساسها بالوحشة والغربة مع أناس نظرتهم مشبعة بمشاعر الحقد والكراهية، ومنه يظهر لنا أن الذات المغتربة عانت التمييز العنصري والمحابة في سياق اجتماعي وثقافي مغاير يمجد القطيعة الحضارية بين أنماط ثقافية مختلفة عن أنماطه ولا ترضخ لمقتضياته، وكان الحجاب مثالا حيا عن عنصرية الآخر الذي سعى إلى مطاردة أصحابه في مناخ دكتاتوري غاشم.

خاتمة:

وفي الختام يمكننا القول أن الكاتبة العراقية "حوراء النداوي" من خلال رواية "تحت سماء كوبنهاغن" قد رصدت لنا طبيعة الواقع البيني الذي تعيشه الذوات المهمشة

في المجتمعات الغربية-الأوروبية خاصة- ما بعد الكولونيالية ومختلف المعوقات التي تصادفها وهي تبحث عن انتمائها وهويتها المضطربة في المجتمع المضيف القاتل للهويات المختلفة، وهو الأمر الذي جعله يكرس العنصرية ويرفض الاختلاف والتعددية الثقافية التي ترتبت عنها نتائج انعكست سلبا على سيكولوجية الذات المغتربة وهويتها، حيث كشفت لنا الرواية التحيزات الكامنة خلف الذات الغربية المتمركزة وحمولاتها الثقافية المعادية للحوار الحضاري والتعايش السلمي، بالإضافة إلى نزعتها الإقصائية الاختزالية التي تدعي النقاء العرقي والتفوق الثقافي وهي تعلن إدانتها للفكر الشرقي وهويته العربية، ما قاد الذات هي الأخرى إلى الانغلاق وعدم التواصل معه خوفا من نظرتة العدائية لها، فترك مصيرها معلقا في غياهب الغربة، وكأن الكاتبة هنا تدعو إلى الانفتاح والتعددية الثقافية والتعايش كنتيجة حتمية من منطق تاريخي إنساني بغية التحرر من وطأة التهميش والاقصاء الثقافي وبالتالي تحقيق الشراكة الثقافية في هذه الفضاءات البينية.

- 1 هومي بابا، موقع الثقافة، تر، ثائر ديب، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب، 2006، ص10.
- 2 محمد بوعزة، سرديات ثقافية من سياسات الهوية إلى سياسات الاختلاف، دار الأمان، ط1، الرباط، المغرب، 2014، ص37، 38.
- 3 هومي بابا، موقع الثقافة، مرجع سابق، ص11.
- 4 فاطمة مختاري، اشكالية الهوية وصراع الأنا والآخر في الرواية النسائية العربية، مجلة الباحث، الجزائر، المجلد 11، العدد 01، 2019، ص55.
- 5 أنيا لومبا، في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، تر، محمد عبد الغني غنوم، دار الحوار، ط1، سوريا، 2007، ص77.
- 6 هومي بابا، موقع الثقافة، مرجع سابق، ص09.
- 7 دوغلاس روبنسون، الترجمة والامبراطورية نظريات الترجمة مابعد الكولونيالية، تر، ثائر الديب، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، مصر، 2005، ص45.
- 8 سمير الخليل، دليل المصطلحات الثقافية والنقد الثقافي، إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، دار الكتب العلمية، د/ط، بيروت، لبنان، د/ت، ص74.
- 7 سمير الخليل، دليل المصطلحات الثقافية والنقد الثقافي، إضاءة توثيقية للمفاهيم الثقافية المتداولة، مرجع سابق، ص09.
- 10 حوراء النداوي، تحت سماء كوبنهاغن، دار الساق، ط1، بيروت، لبنان، 2010، ص22، 23.
- 11 هومي بابا، موقع الثقافة، مرجع سابق، ص47.
- 12 الرواية، ص22.
- 13 الرواية، ص22.
- 14 الرواية، ص25.
- 15 بشير خلف، بحثا عن ثقافة الحوار مع الذات ومع الآخر "دراسة"، دار الهدى، ط1، الجزائر، 2018، ص129.
- 16 الرواية، ص25.
- 17 الرواية، ص25.
- 18 الرواية، ص26.
- *نوستالجيا (NOSTALGIE) كلمة يونانية الأصل وتعني الشعور بالحنين والتوق إلى الماضي.
- 19 الرواية، ص30.
- 20 الرواية، ص31.

- 21 الرواية، ص33.
- 22 صامويل هنتنغتون، صدام الحضارات إعادة صنع النظام العالمي، تر، طلعت الشايب، سطور للنشر، ط2، 1999، ص10.
- 23 ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر "نماذج روائية عربية"، عالم العرفة، ط1، الكويت، 2013، ص07.
- 24 محمد عابد الجابري، التراث والحداثة دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، ط1، بيروت، لبنان، 1991، ص27.
- 25 الرواية، ص96.
- 26 الرواية، ص98.
- 27 الرواية، ص98.